

المساهمات الفرنسية في إثراء الثقافة التونسية خلال القرن التاسع عشر

Les contributions françaises à l'enrichissement de la culture tunisienne au XIXe siècle

الباحثة فتنية بالحاج
جامعة تونس / تونس
fathiabelhaj27@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/12/27 تاريخ القبول: 2024/03/23

● الملخص:

مع بداية القرن التاسع عشر ظهرت بعض المؤشرات والروافد الثقافية الجديدة التي تسربت إلى البلاد التونسية وساهمت في نشر نوعية مختلفة من المعارف والعلوم. فمنذ دخول التجار والرحالة وعلماء الآثار ورجال الدين الأوروبيين للبلاد التونسية، ساهم كل هؤلاء في خلق حركية ثقافية وتبادل في مستوى الأفكار التي ستشكل القناة التي عبرها سيتم غرس بعض التقاليد والقيم الجديدة. فقد مثل الرحالة أول المدونين والناقلين والواصفين لعادات التونسيين ولتقاليدهم، فقدموا لنا بأشكال مختلفة وجهة نظرهم وقراءتهم للمجتمع التونسي، وبقدر ما كانت هذه القراءات ثرية بقدر ما كانت حاملة لوجهة نظر صاحبها. فبين الرحلة العبور للفيلسوف الفرنسي شاتوبريون التي أداها مع بداية القرن التاسع عشر وبين رحلة الروائي الشهير فلوير الذي قدم مع منتصف القرن لمعاينة أحداث روايته الجديدة صلامبو بمنطقة قرطاج بون شاسع في نقل ما شاهداه على عين المكان ولم يمنعهم ذلك من تدوين كل ملاحظاتهم عن المجتمع التونسي وتوثيق اللحظات التي عاشها والتفاعلات الحاصلة مع المجتمع التونسي وثقافته.

غير أن الرحلات العلمية التي قام بها علماء الأركيولوجيا خلال هذا القرن إلى البلاد التونسية وإن مثلت نوعية أخرى من التأثير الثقافي إلا أنها كانت واضحة على مستوى اهتماماتها البحثية، فجمع النقائش والبحث عن القطع الفنية ومحاولة مسح للمواقع الأثرية ووصفها مثلت قطب شواغلهم، حيث تمكنوا خلال هذه الفترة من تحقيق نتائج مهمة في مستوى أبحاثهم الأركيولوجية. وقد يبدو الأمر مفاجئاً إذا توقفنا على دور المؤسسة العسكرية الفرنسية وتحديدًا عبر بعض ضباطها الذين قدموا إلى تونس في مهمة لتحديث جيش أحمد باي من إضفاء لمسة على ثقافة النخبة العسكرية التونسية، وذلك عن طريق التدريس والمواد العلمية التي تم إدراجها على البرامج التعليمية داخل المدرسة الحربية التونسية، إضافة إلى الأنشطة الثقافية الجانبية التي قام بها هؤلاء الضباط. كما لعب الآباء البيض وخاصة الكاردينال لا فيجري والأب ديلاتر منذ حلولهما بتونس في إرساء بعض التقاليد الثقافية الجديدة من ذلك تأسيس أول مدرسة كاثوليكية كما انكبنا على دراسة وجمع القطع الأثرية بتلة قرطاج. ومع تكدس وتنوع هذه القطع وقع التفكير في بعث وتأسيس متحف سمي متحف القديس لويس والذي ستركز عليه فرنسا لتوظيفه لخدمة إشعاعها الثقافي. فكيف تبلور هذا الرافد الثقافي الفرنسي بالبلاد التونسية؟

الكلمات المفتاحية: القرن التاسع عشر / الثقافة / الفرنسيون / الرحالة الفرنسيين / الضباط العسكريون / رجال الدين

Abstract:

Au début du XIX^e siècle, de nouveaux indicateurs culturels et affluents ont émergé qui se sont infiltrés en Tunisie et ont contribué à la diffusion d'une qualité différente de la connaissance et de la science. Depuis l'arrivée des marchands, des voyageurs, des archéologues et du clergé européens en Tunisie, tout cela a contribué à la création d'une mobilité culturelle et d'un échange d'idées qui formeront le canal par lequel certaines nouvelles traditions et valeurs seront inculquées. Les voyageurs ont représenté les premiers blogueurs, porteurs et descripteurs des coutumes et traditions tunisiennes, nous présentant de diverses manières leur point de vue et leur lecture de la société tunisienne, et aussi riches que soient ces lectures, ils portaient le point de vue de leur propriétaire. Entre le voyage de traversée du philosophe français Chateaubriand, qu'il a effectué au début du XIX^e siècle, et le voyage du célèbre romancier Flaubert, venu au milieu du siècle examiner les événements de son nouveau roman Salambo dans la région de Carthage, il y a eu un vaste transport de ce qu'ils ont vu sur place, ce qui ne les a pas empêchés d'enregistrer toutes leurs observations sur la société tunisienne et de documenter les moments qu'ils ont vécus et les interactions avec la société et la culture tunisiennes.

Cependant, les voyages scientifiques effectués par les archéologues au cours de ce siècle en Tunisie, bien qu'ils représentaient un autre type d'influence culturelle, étaient évidents au niveau de leurs intérêts de recherche, la collecte d'inscriptions, la recherche d'objets d'art et la tentative d'arpentage et de description de sites archéologiques représentaient leurs préoccupations, car ils ont pu obtenir pendant cette période des résultats importants au niveau de leurs recherches archéologiques. Il peut paraître surprenant que l'on dépende du rôle de l'establishment militaire français, notamment à travers certains de ses officiers venus en Tunisie en mission pour moderniser l'armée d'Ahmed Bey, pour donner une touche à la culture de l'élite militaire tunisienne.

Cela se fait à travers le matériel pédagogique et scientifique qui a été inclus dans les programmes éducatifs au sein de l'Ecole Militaire Tunisienne, en plus des activités culturelles parallèles menées par ces officiers. Depuis leur arrivée en Tunisie, les Pères Blancs, en particulier le cardinal La Vigne et le père Delattre, ont joué un rôle dans l'établissement de nouvelles traditions culturelles, telles que la fondation de la première école catholique, ainsi que l'étude et la collecte d'objets sur la colline de Carthage. Avec l'accumulation et la diversité de ces pièces, l'idée était de créer et d'établir un musée appelé le musée Saint-Louis, que la France utilisera pour servir son rayonnement culturel. Comment cet affluent culturel français s'est-il cristallisé en Tunisie ?

Keywords:

Inscriptions Latines / Colonisation Française / Missions Scientifiques / Législation Romaine

● مقدمة:

إلى حدود القرن الثامن عشر كان المسلمون يعتقدون أن المجال الإسلامي هو الفضاء الوحيد الذي يمكن أن يستلهم منه كل القيم والمعارف، وأن الإسلام كدين وثقافة قادر على الصمود بمفرده أمام أي تأثير خارجي متناسين استعداد الثقافات والإنسان عموماً للخضوع لقاعدة التأثير والتأثر، فما بالك إذا كان هذا التأثير وهذه الجدلية صادرة عن وضعية لا متكافئة، كانت تأخذ فيها الهيمنة العسكرية الإستعمارية والاقتصادية اتجاهها واحداً وهو اتجاه سيطرة أوروبا ثقافياً على العالم الإسلامي. ومع بداية القرن التاسع عشر برزت أفكار وتصورات جديدة وافدة من حضارة أخرى كانت قادرة على أن تدخل الاضطراب على الفرد وعلى المجتمعات بما في ذلك المجتمع التونسي.

ويمكن القول أنّ الحملة التي قام بها نابليون على مصر سنة 1798 وتعزيزها بفريق علمي مجهز متكون من عسكريين وسياسيين ورسامين وفنانين، مثلت منعرجاً في تاريخ الحروب، وأسست لتاريخ ثقافي من صنف جديد خاصة بعد الأسلوب الذي تعاطت معه الدول الاستعمارية للبلدان التي وقع احتلالها. هذه البلدان الاستعمارية إلى جانب قوتها العسكرية التي ظهرت بالسيطرة على الميدان ظهرت أيضاً كقوة علمية وفكرية، إذا أصبح لدينا مساراً استعمارياً عسكرياً يرافقه مسار معرفي واضح المعالم.

وإذا كان القرن الثامن عشر قرن فلسفة الأنوار بفرنسا وقرن الثورة الصناعية بانجلترا، فإنّ القرن التاسع عشر مثل قرن المد الاستعماري وقرن تشكل القوى الإمبريالية الكبرى التي سيكون لها نفوذ وحضور ميداني وجغرافي في العديد من دول العالم. لكن هذا الحضور العسكري واحتلال الأرض سبقه تمهيد على المستوى الثقافي وفي مستوى طرح الأفكار وتبادلها. وقد كان لتحسن شبكات النقل بشكل عام خلال القرن التاسع عشر دور كبير في الإسراع بعملية تسرب بعض الأفكار والقيم الجديدة للعديد من البلدان بما في ذلك البلاد التونسية.

غير أنّ هذه القنوات الثقافية التي امتدت عكست بشكل كبير ذلك اللا تكافؤ مثلما كان الحال على المستوى العسكري. إلا أنّ ما أثار فضولنا المعرفي أن عديد الأنشطة والتحركات ذات الاتجاه الثقافي بالبلاد التونسية مع بداية القرن التاسع عشر، لم تكن بالضرورة تحت إشراف مؤسسات تابعة أو مدعومة من الدولة الفرنسية بل أن العديد منها كان من قبل أفراد.

وبالتالي فإنّ إشكالية مقالنا ستكون كالتالي:

ما مدى تأثير هذه القنوات الفرنسية، سواء كانت أفراداً أو مؤسسات في المجال الثقافي التونسي؟ وكيف ساهمت في زرع بذور ثقافة جديدة بالبلاد التونسية؟

1-رحالة القرن التاسع عشر بين أدب الرحلة والرحالة ذوي الاختصاص.

شكل الرحالة عبر التاريخ مصدراً مهماً من مصادر المعرفة ووسيلة فريدة للتعرف والاطلاع على العالم الذي ينقله المسافر صاحب الرحلة من أفكار وتصورات وأيضاً ما شاهده بأعينه من عادات وتقاليد ومناظر طبيعية، وبقايا آثار.

وعبر ما دونوه أصبح لدينا مادة معرفية مهمة مكنتنا من أخذ فكرة عن المجتمعات التي تم رصدها.

وبقطع النظر عن المحتوى العلمي لروايات الرحالة وأسلوبهم الوصفي، فإنها تحمل بالضرورة وجهة نظر صاحبها عن البلد الذي حل به. فهؤلاء المغامرون كانوا يعتقدون "أنهم يكتشفون عالماً غريباً فيصفونه من زاوية اعتماداً على نظرتهم الخارجية وعلى منظومتهم القيمية، معتمدين المقارنة الضمنية

في مجتمعاتهم، مولين الأولوية لمراكز اهتمامهم"¹

وقد مثل أدب الرحلة الذي تركه الرحالة الأوروبيون في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر مصدرا مهما للمعرفة في ظل ندرة الوثائق المتعلقة بهذه الفترة. كما اشترك هؤلاء في بعض النقاط الرئيسة منها الاطلاع الكبير على وضعية البلد ولنظامه السياسي هذا بالإضافة إلى قدرتهم الفائقة على الوصف الدقيق لكل ما يعترض طريقهم وتنقلاتهم بين القرى والأرياف وفي جميع مجالات الحياة سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية بما تعنيه هذه الكلمة من عادات وتقاليد وطرق عيش واحتفالات دينية وعائلية.

لقد عرف القرن التاسع عشر عملية تكثيف للرحلات بشكل مبرمج أو عن طريق الصدفة حيث وضعتهم الأقدار وجها لوجه مع مغامرة داخل البلاد التونسية. فهذه الرحلات المتكررة أو التي تصاعدت وتيرتها مع بداية القرن منها ما ارتبط بالجانب السياسي والدبلوماسي ومنها من كان له منحى عسكري.

ومهما كانت الدوافع لهذه الرحلات، فإنها مثلت وجهة نظر صاحبها وتجربته الشخصية في المعاينة والزاوية التي شاهد من خلالها الأحداث.

1-2 رحلة الأديب الفرنسي فلوبار (Flaubert) (1821-1881) دفع جديد للتعريف بموقع قرطاج

مثلت رحلة الكاتب الفرنسي الشهير صاحب رواية مدام بوفاري إلى تونس سنة 1858 حدثا وذلك بهدف التحضير لروايته الجديدة صلامبو.

وفي رحلة قدومه إلى تونس سلك الروائي فلوبار طريق البر قادما من الجزائر بعد أن مر بكل من مدينة قسنطينة، ثم مدينة عنابة فأوتيك فقرطاج التي مكث بها أربعة أيام ثم انتقل إلى مدينة سوسة فالجم وصفاقس وكانت محطته الأخيرة مدينة الكاف قبل أن يأخذ طريق العودة إلى الجزائر²

وقد تمكن الكاتب عند وصوله لمدينة قرطاج ولموقعها الأثري من معاينة مسرح أحداث روايته الجديدة المزمع إنجازها وإطارها الحقيقي (صدرت هذه الرواية بعد أربع سنوات أي سنة 1862). كما أراد أن يعيش ويعايش مسرح أحداث روايته بشكل فعلي واستغل جماليا وخياليا كمكان رحب مليء بالإمكانات³

إنّ الملاحظات التي أوردها ودونها فلوبار ليست ملاحظات أي كان فهو أولا روائي ومثقف مشهور جدا وينتمي إلى ثقافة أخرى مختلفة تماما عن الثقافة التونسية. وبحكم موقعه هذا فإن كل ما كتبه ودونه وما استحضره من وقائع وأحداث وأسماء ستترك وقعها على القراء. لقد ساهمت روايته "صلامبو" بما لا يدع مجالا للشك في التعريف بقرطاج وتاريخها وحضارتها وبما عرفته من ازدهار وتقدم خلال الفترات القديمة السابقة للحضور الإسلامي. ورغم إدراكنا وإدراك قراء رواية صلامبو السابقين أو الحاليين بأن الأحداث التي أوردها فلوبار لا تمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة فإنها مع ذلك استطاعت وبشكل استثنائي ولا مسبوق أن تعرّف بقرطاج وعبرها التعرف على البلاد التونسية. والإنجاز الأكبر الذي حققه هذا الكتاب أن الموقع والمدينة الأثرية بقرطاج لم تعد معرفتها مقتصرة على ذوي الاختصاص من المؤرخين والأكثولوجيين أو علماء الآثار بل اتسعت دائرة الاطلاع إلى شرائح عادية من الفرنسيين وغير الفرنسيين المستعملين والقارئ لهذه اللغة. وهذا في حد ذاته إنجاز ثقافي ودعاية معتبرة واعتراف مباشر أو غير مباشر بحضارة هذا البلد، وكانت الرواية محفزة لمزيد من المعرفة والفضول للعديد من الأشخاص الأجانب وحافزا لبداية ظهور أبحاث جدية وعلمية تهتم بقرطاج.

من خلال هذين النموذجين للأدبيين الفرنسيين يمكن القول ان زيارتهما للبلاد التونسية شكلت حدثا ثقافيا في حد ذاته ومثلا نموذجين

¹ بيسونال (جون اندريه)، الرحلة إلى تونس (1724)، ترجمة تحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص5.

² BASSET (MM.A) et autres, *Initiation...* op.cit p285.

³ إدوارد سعيد، الاستشراق... المرجع المذكور سابقا، ص194.

مختلفين من الكتابة والتصور والرؤيا للبلد مما انعكس على شكل الكتابة لكليهما، وهنا تأتي أهمية ما دوننا وما سجلنا، فرغم انتمائهما لنفس الفترة إلا أن محتوى الرحلة لكليهما كان مختلفا فالأول سجل ما كان موجودا أمامه بعيون المحبط اليأس فكانت الملاحظات سوداوية بينما عاد الثاني إلى الزمن الغابر لينفض عنه الغبار ويخرجه إلى العالم في شكل ابداعي وكتابة متقنة. لكن الأهم في التأثير الثقافي لرواية فلوبار أن الأسماء التي أوردها في كتابه بقي لها أثر مادي على عديد الأماكن بمدينة تونس وتحديدًا بمدينة قرطاج والدليل على ذلك ما أورده قوبار الطبيب والانتروبولوجي الفرنسي الذي ذكر أن اسمي "صلامبو" و"أميلكار" قد أطلقا على شاطئين بضواحي مدينة تونس وأيضًا على أسماء لمخطي قطار الضاحية الشمالية " ولا تزال هذه الأسماء موجودة ومتداولة إلى اليوم.

1-3 رحلة قيران (V. Guérin) (1821-1890) بداية التأسيس لرحلات علمية

لم تكن الرحلة التي أداها قيران إلى تونس هي الأولى في مسيرة هذا الرجل، فقد قام بزيارة بين سنة 1854 و 1857 إلى كل من مصر وسوريا وفلسطين وبالتالي فإننا أمام شخصية تعودت على التنقل في الفضاء العربي الاسلامي ويعي جيدا الخلفية الثقافية التي تحركه وبالتالي فإن رحلته التي أداها إلى تونس كانت مثمرة من حيث نتائجها الثقافية فقد مكنته هذه الزيارة من تأليف كتاب "رحلة في الأركيولوجيا داخل إيالة تونس". وقد احتوى هذا المؤلف على جزأين الأول جاء في 434 صفحة مع خريطة تمثل البلاد التونسية أما الجزء الثاني من الكتاب فقد أتى على المعالم الأثرية لمنطقة دقة وللقناش التي تم العثور عليها من بينها "نقيشة مكتوبة بلغتين البونية واللاتينية وقد تم نقلها إلى المتحف البريطاني"⁴ من قبل القنصل البريطاني توماس ريد سنة 1852.

وتأتي أهمية الكتابات التي أوردها قيران من خلال تجربته اللافئة بالنسبة للرحلات السابقة وفي المسح شبه الكامل للبلاد بداية من مدينة تونس وضواحيها منطقة الساحل بقراها ومدنها وواصل سيره في اتجاه الجنوب ليمر عبر صفاقس فقابس وجربة وجرجيس فالحامة ونفزاوة والجريد فقفصة والقصرين. هذه الجولة الموسعة مكنت الكاتب من انجاز قائمة ببعض المصطلحات العربية الأكثر شيوعا لدى العامة من التونسيين، وهي في حد ذاتها محاولة جدية للدخول في ثقافة التونسي خاصة الشعبية منها، وفي الجانب الآخر من الثقافة، تلك المتعلقة بالمعالم التاريخية والمواقع الأثرية التي تم وصفها بدقة لا متناهية هذا بالإضافة إلى اكتشاف النقيشة الذي اعتبر في حد ذاته كحدث ثقافي وتاريخي مهم، إضافة إلى أنه مع قيران بدأت تتبلور أفكار جديدة تهم هذا الميدان بأسلوب فيه من الحرفية الشيء الكثير وهذا ما سنلاحظه بشكل أوضح في رحلة تيسو.

1-4 رحلة تيسو (Tissot) لسنة 1852 بين الدور الدبلوماسي والعلمي

مثلت الرحلة التي قام بها تيسو من حيث الطريقة التي استعملها في استكشاف البلاد وأيضًا من حيث نتائجها، وبالمقارنة مع مجمل الرحلات التي سبقتها استثناءً نظرًا إلى أن الرجل استقر بمدينة تونس كدبلوماسي سنة 1852 بحكم إتقانه لعدد اللغات على غرار الألمانية والاسبانية والإنجليزية واللاتينية إلى جانب تخصصه في الحقوق ثم في الجغرافيا.

وقد انطلقت أولى رحلاته في اتجاه الجنوب التونسي سنة 1853 ثم منطقة خمير (سلسلة جبلية في شمال البلاد التونسية) سنة 1854 لكن الرحلة التي قام بها صحبة المحلة السنوية للباي المتجهة إلى الصحراء وتحديدًا منطقة الجريد سنة 1857 هي الأهم لأنها شملت تقريبًا كامل الإيالة كما ساهمت هذه الرحلة في دفع وتغيير مساره المهني ومجمل اهتماماته العلمية.

لقد كان الهدف الرئيسي من هذه الرحلة هو مواصلة البحث عن النقائش والمواقع الأثرية التي أنجز جزءًا منها في رحلاته السابقة.⁵

كما استغل تيسو (شارل جوزيف) خروج محلة الباي التي تتجه في فصل الشتاء لجمع الضرائب بمنطقة الجريد ليوفر لنفسه الحماية الأمنية اللازمة والتي عبرها سيسهل عليه الوصول إلى المناطق البعيدة التي يصعب الوصول إليها بشكل منفرد. وقد مكنته هذه الرحلة من التعرف على عديد

⁴ GUERIN (V.), *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, Henri Plon, Paris, 1862, p 7.

⁵ Archives Militaires de Vincennes, 2 H 2, rapport sur une expédition dans le sud de la régence de Tunis, Tunis le 1^{er} mai 1857, p 132 bis.

المواقع الأثرية مثل معلم الجم.

لقد نتج عن هذه الرحلة وما ترتب عنها من انعكاسات وتأثيرات إيجابية في الجانب الثقافي والمعرفي فهذه المواقع كانت في حاجة إلى من يخطط عليها اللثام ويدرسها بشكل علمي فالعديد منها لم يقع إكتشافها إلا من خلال هذه الرحلات رغم أنها لم تكن في الكثير الأحيان بدافع ثقافي من البداية بل كانت أسبابها مختلفة منها ما برره تيسو في رحلته هذه فإلى جانب نجاحه الدبلوماسي فإنه تمكن من استغلال كل المعطيات الجانبية الأخرى بما في ذلك المعطى الثقافي وهذه الرحلة أكدت أنه لا شيء يمنع أو يتعارض بين الاهتمام بالثقافي وتناول ميادين وقضايا أخرى سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية فالمجال الثقافي عابر لكل هذه الاختصاصات.

2- دور بعض الضباط الفرنسيين في نشر الثقافة التونسية

لابد من التأكيد في هذا العنصر من البحث أن عملية الفصل بينها وبين العنصر السابق لا يعدو أن يكون فصلا منهجيا خاصة أن البعض من هؤلاء الضباط كانوا رحالة في نفس الوقت، وبالتالي ارتأينا أن نقوم بهذا الفصل لإبراز دور المؤسسة العسكرية في الاضطلاع بهذا الدور ومساهماتها الغير مباشرة والغير مبرجة في عديد الأحيان في إعطاء بعض الإشارات عن الجانب الثقافي للبلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر.

2-1 رحلة الضابط بيليسي (J. E. Pellissier) (1798-1858) وبداية الاهتمام بالنقائش.

هو ضابط فرنسي عين قنصلا بمدينة سوسة سنة 1843 إلى حدود 1848 وتعتبر رحلته من أهم الرحلات التي قام بها الرحالة الأجانب وتحديدًا الفرنسيين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وتأتي أهميتها من حيث دورها في بداية اعطاء فرصة لنوع جديد من الوثائق المكتوبة والمقصود هنا النقائش، وتأتي الأهمية ثانيا من حيث النتائج التي تم الحصول عليها بعد قراءتها وتمحصها وما حملته من معلومات عن البلد وعن القرون الغابرة وخاصة الفترة الرومانية.

كما اعتبرت رحلة بيليسي هامة بكونها قامت بعملية مسح لعديد المواقع البعيدة والوعرة والغير مألوفة من قبل الرحالة مثل تلك التي أداها إلى مدينة تالة حيث وصف أهم القرى التي مر بها وتحدث " عن حالة الجفاف التي عمت المنطقة وبعض الاضطرابات الاجتماعية مما اضطره إلى مغادرة المكان بسرعة"⁶. لكن هذا الوضع لم يمنعه من الحديث عن المواقع الأثرية الموجودة بهذه المنطقة ووصفها.

كما تمكن في نفس السنة من القيام برحلة إلى الشمال الغربي ودون خلالها كل ما اعترض سبيله. لكن أهم انجاز قام به بيليسي هو اكتشافه لعديد النقائش والكتابات اللاتينية بمدينة الكاف وصلت إلى 32 نقيشة"⁷، هذا دون ان ننسى مؤلفه الضخم حول وصف البلاد التونسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر والذي جاء تحت عنوان: Description de la régence de Tunis.

ويبدو أن هذا النوع من الرحلات لم تكن أهدافه المعلنة هي التعمق والبحث في الجوانب الثقافية بقدر ما جاء الحديث عن الموضوع من باب التعامل مع الأشياء بفضول الرحالة وحب المغامرة والاكتشاف فكانت النتيجة هو الاحتكاك بالواقع وملاسته وتدوينه والاستفادة منه في المجال الثقافي وغيرها من المجالات بالنسبة للباحثين المختصين.

2-2 دور الضباط العسكريين الفرنسيين في المشهد الثقافي أثناء فترة أحمد باي

قام أحمد باي سنة 1838 بإعادة تأهيل المكتب الحربي الذي أسسه حسين باي ووسعه وطوره وحوله إلى مدرسة عسكرية. وكان أغلب المدرسين العسكريين من الفرنسيين"⁸

⁶ Archives Militaires de Vincennes, 2H2, rapport n° 4, voyage à Thela par PELLISSIER , p2.

⁷ Ibid., p 44.

⁸ التيمومي (الهادي)، تونس والتحديث أول دستور في العالم الاسلامي، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2010، ص 82

وتأكيدا على نقطة هيمنة المدرسين العسكريين الفرنسيين على هذه المدرسة، وجدنا من خلال بحثنا في الأرشيف العسكري الفرنسي لجيش البر بفرانس ما يفيد ذلك إذ أمر وزير الحرب الفرنسي سنة 1850 العقيد استير بازي القيام بمهمة في الإيالة التونسية، هذه المهمة تخص إعادة بناء جيش الباي⁹

وهذا الضابط الذي مكث بالإيالة التونسية لفترة طويلة نوعا ما مكن السلطات الفرنسية من معلومات ذات طابع أممي لكن في نفس الوقت ساهم بشكل فعال في تحسين التكوين بالنسبة للضباط التونسيين مثله مثل الضابط الإيطالي كاليقاريس الذي أقدم على ترجمة الكتب الغربية إلى اللغة العربية.¹⁰

كما ساهم ضباط آخرون بإدخال عديد التغيرات على طريقة التدريس في المدرسة الحربية من بينها التخلي عن الترجمة إلى اللغة العربية ودراسة الكتب بلغتها الأصلية وهي الفرنسية.¹¹

كما تم خلال هذه الفترة رسم عديد الخرائط وبقطع النظر عن طابعها العسكري فإنها مثلت البدايات الأولى والشكل العلمي لمعرفة طبوغرافية البلاد ومعرفة هذا الجانب هو جزء من معرفة ثقافة البلد والتعاطي معها بشكل واقعي.

ولا ننسى هنا دور الضباط في عملية الوصف الدقيق وتدوينهم لأدق المعلومات باعتبار أن هذه المهام تدخل في صلب اختصاصهم فقد تم وصف لعادات الناس وتقاليدهم، وللطرق والمسالك التي يتم إتباعها بل في عديد الأحيان يتم اكتشاف طرق برية وقع استعمالها من قبل الرومان على غرار الخط الرابط بين قرطاج وسيرتا (قسنطينة) والذي يمر عبر مدينة الكاف.¹² وكذلك الأمر بالنسبة للطريق الرابط بين مدينة تونس وسوق أهراس الذي وقع إحيائه من جديد وتم من خلاله التعرف على عديد المواقع الأثرية وأيضا أمكن بفضل هؤلاء الضباط التعرف على خريطة لمدن قديمة قد اندثرت تماما، وهذا بمجد ذاته عمل ذو صبغة ثقافية باعتبار هذه المسالك التي اندثرت وهجرت قد تم إحيائها من جديد يمثل انجازا مهما كانت الخلفية والمنطلق الذي استعمل من أجله. صحيح أن الهدف منذ البداية كان استخباراتيا أمنيا لكن المعطيات التي صاحبته يمكن توظيفها بأشكال مختلفة بما في ذلك المجال التاريخي والثقافي.

وبقطع النظر عن شواغل أحمد باي من عملية التحديث وأهدافه ودوافعه والطريقة التي تمت بها، فإن ذلك لم يمنع من أن يرافق ذلك العديد من الانعكاسات في الجانب الثقافي فاستعمال اللغة الفرنسية من قبل الطلبة التونسيين داخل المدرسة الحربية وتكوين إطارات عسكرية منفتحة على لغات وثقافات أخرى وعلى علوم جديدة هي التي ستكون النواة الصلبة للمنحى الإصلاحية الذي ستعرفه البلاد التونسية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهذا في حد ذاته يمثل تغييرا هيكليا وجذريا في الثقافة التونسية خاصة من خلال نخبها وستكون لها ارتداداتها على المراحل التاريخية اللاحقة وفي كل الاتجاهات.

2-3- نموذج لأحد الضباط الفرنسيين الذين كتبوا عن الإيالة التونسية

لقد تضمنت المجلة التونسية (*Revue Tunisienne*) الصادرة عن معهد قرطاج الفرنسي أثناء الفترة الاستعمارية مقالا يتحدث عن مذكرات دونها ضابط فرنسي قدم إلى تونس خلال فترة الثلاثينات من القرن التاسع عشر، هذا الضابط يدعى "لوقان"، وذلك لتنظيم جيش حسين باي في جانفي 1831 ثم غادر الإيالة التونسية في جوان 1832¹³

لقد قام لوقان (J.L. Lugan) في هذه الفترة بكتابة قصص قصيرة مستوحاة من الحياة اليومية والسياسية التي عاشها بتونس. فتناولت

⁹ Archives Militaires de Vincennes, 2H2, dossier n° 2, de 1847 au 1855, document n 63, n° 199 et 217.

¹⁰ التيمومي هادي، تونس التحديث... المرجع المذكور سابقا، ص 83

¹¹ المرجع نفسه، ص 83.

¹² Archives Militaires de Vincennes, 2H1, rapport n° 6, 1879, p 27.

¹³ HUGON (H.), « Trois contes tunisiens d'un officier français (J. L. LUGAN, 1834) », *Revue Tunisienne*, Tunis, 1917, p 81.

القصة الأولى علاقة حب جمعت شابا فرنسيا جاء إلى تونس للبحث عن الآثار بفتاة تونسية، ورغم التنازلات التي قدمها هذا الفتى من أجل الزواج بحبيبته كاعتناقه الإسلام وترك عائلته الموجودة بفرنسا، فإنّ الزواج انتهى بمأساة حيث أُلقي بالفتاة في البحر وعودة الشاب لوطنه.¹⁴

القصة الثانية تدور أحداثها حول مملوك كلف بجمع الضرائب من القبائل الصحراوية، وأثناء تأديته لمهمته أحب فتاة من هذه القبيلة ورغب في الزواج منها لكنه جوبه برفض والدها، وعند عودته إلى باردو تمت معاقبته ومن غرائب الصدق أن هذا الأخير التقى بعائلة الفتاة التي أحبها مع قبائل صحراوية أخرى في احتجاجات ضد الباي انطلاقا من مدينة الكاف، حيث انضم إليهم هذا المملوك¹⁵، وتنتهي القصة بأحداث أليمة من بينها إصابة الفتاة التي أحبها المملوك بالجنون.

القصة الثالثة تمّ أحد القرصان الذي وعده الباي بأن يشتري له سفينة، وبعد أن تم له ذلك أصبح الباي يطالبه بنصيبه من أرباح هذه السفينة رغم انقطاعه عن نشاط القرصنة وواصل الباي ضغطه، فثار عليه هذا الأخير وقام باختطاف عائلته واتجه بها إلى جزيرة جربة، لكن تم اختطاف القرصان بدوره من قبل سفينة أوروبية غير أنه تمكن من اللقاء بنفسه في البحر.¹⁶

من خلال هذه القصص الثلاث يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية:

- أنّ الضباط الفرنسيين الموجودين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان لهم إنتاج فكري وثقافي إلى جانب المهام العسكرية الموكولة إليهم، وهذا النشاط الثقافي مثل في حد ذاته مسألة استثنائية نظرا لخصوصية المهمة التي قدموا من أجلها فهي تتطلب الكثير من التحفظ والجدية والانضباط، وبالتالي فإن الكتابة في مجال القصة من قبلهم تعتبر مغامرة.

- القصص التي وردت بالمجلة والتي كتبها الضابط الفرنسي تعطي صورة وانطباعا على أن قضايا وهموم ومشاكل التونسيين خلال القرن التاسع عشر قد لامست الفرنسيين وتمكنوا من مواكبتها والاقتراب منها والتعبير عنها بشكل فيه الكثير من الصدق ونبيل المشاعر والمعاشية الحقيقية أي أن هناك ثقافة وتبادل في مستوى الأفكار وهذا جزء من مساهمة هؤلاء في الحياة الثقافية وترك بصمتهم في هذا المجال.

- القصص كانت غنية بالمشاعر والقيم الإنسانية وهذا يعني أن مجال القصة والميدان الثقافي قادر على إذابة الجليد وتجاوز الحساسيات التي يمكن أن تخلقها السياسة.

4- دور رجال الدين في رسم بعض المعالم الثقافية

لعبت المؤسسة الدينية الفرنسية بالبلاد التونسية، وتحديدًا بعض رجال الدين دورا في إرساء بعض التقاليد الثقافية التي لم تكن متداولة في الايالة خلال القرن التاسع عشر ومن بين الممارسات الجديدة إرساء وبعث متحف لأول مرة في تاريخ هذا البلد وهو متحف القديس لويس بقرطاج.

ولسائل أن يسأل لماذا هذا الاسم القديس لويس ولماذا إنجاز متحف؟

فيما يخص الجزء الأول من السؤال فإنه يعود بنا إلى الفترة الحفصية التي عرفت ازدهارا ماديا وأدبيا وقد يكون هذا من بين الأسباب التي دفعت ملك فرنسا لويس التاسع إلى اختيارها هدفا لحملة الصليبية سنة 1269م ظنا منه أن إلحاق الهزيمة بالدولة الحفصية يمكن أن يؤدي إلى تراجع الإسلام عن هذا البلد. لكن هذه الحملة فشلت ولحق بجيش لويس التاسع خسارة فادحة جراء وباء الطاعون ومات العديد في هذه الحملة بما في ذلك لويس التاسع.

إذا كانت هذه الخلفية التاريخية لتسمية المتحف والتي سيتم توظيفها بشكل جيد في إطار استغلال أحداث الماضي لفائدة الحاضر.

¹⁴ HUGON (H.), « Trois contes tunisiens d'un officier français (J. L. LUGAN, 1834) », Op.cit, p 83.

¹⁵ Ibid., p 84

¹⁶ Ibid., p 84.

لقد تمكنت فرنسا وبعد احتلال الجزائر سنة 1830 وإثر معاهدة مع باي تونس، من أخذ قطعة أرض على تلة بيرصا بقرطاج كي تقيم فوقها كنيسة القديس لويس.

إن الحضور التاريخي والرمزية القوية للمكان من الناحية الدينية هو الذي سيتم توظيفه بشكل جيد في كل ماله علاقة بالثقافة، وإعطاء موقع قرطاج رمزية إضافية. هذه السردية ستجد من يدعمها خاصة من قبل الآباء البيض. ومن بين الشخصيات المحورية التي لعبت دورا في إبراز القيمة الرمزية والدينية لهذا المكان ثم في مرحلة لاحقة استغلالها من الناحية الثقافية خاصة من قبل الكاردينال لافيغري والأب ديلاتر.

4-1- الكاردينال شارل لافيغري (Cardinal Lavigerie) (1825-1892)

يعتبر الكاردينال لافيغري من الشخصيات المحورية في الحياة الدينية والثقافية للجاليات الفرنسية بالبلاد التونسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد كان تأثيره لافتا وساعده تكوينه العلمي والأكاديمي على ذلك، فهو المتحصل على شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الدينية، كما اشتغل بالتدريس في جامعة السربون بين سنة 1854 و 1861، وما ميزه عن غيره من رجال الدين مساهماته المتعددة في المجال الثقافي، فهو المؤسس والباعث للمدرسة التبشيرية ببلنات سنة 1867 ومؤسس الميتم الأهلي لأطفال الجزائر والذي أصبح فيما بعد يسمى الآباء البيض سنة 1868، والذي اخذ منحى تبشيري بإفريقيا.

وقد تم له ذلك، حيث تمكن سنة 1875 من إحداث مؤسسة تبشيرية بقرطاج وهي فرع من المؤسسة التبشيرية بإفريقيا والتي ستستخذ من الجزائر العاصمة مقرا لها¹⁷. هذه المؤسسة اختارت لها مقرا بالقرب من قبر القديس لويس بقرطاج، لكن من بين مزايا هذا الرجل أنه كان يؤمن إلى حد كبير بالقيمة الأثرية والتاريخية لتلة قرطاج.

فقد كان من أكثر الشخصيات الدينية الفرنسية الحريصة على التعامل مع المعطى التاريخي بشكل فعال وخاصة بمنطقة قرطاج. كما يعتبر لافيغري من أكثر الشخصيات التي كانت تؤمن بضرورة التأثير الفرنسي في إفريقيا، حيث بعث برسالة في هذا الغرض إلى أكاديمية الكتابات والأحرف الجميلة يؤكد فيها على أهمية أن تكون هنالك مؤسسة علمية وبجثة قارة بقرطاج لها طابع تاريخي ولها مهمة أثرية¹⁸. وقد حث في هذا الغرض المجموعة التي كانت بصحبته على البحث والتنقيب والقيام بحفريات.

كان الهدف من هذه العملية إعطاء روح جديدة للعمل التبشيري بتونس خاصة أنها كانت تمثل محطة تاريخية مهمة في انتشار المسيحية بإفريقيا ويمكن أن نكتفي بذكر أحد أهم رموزها الدينية التي أنجبتها قرطاج القديس أوقستين.

لقد أدرك لافيغري منذ معابنته الأولى لموقع قرطاج القيمة العلمية والمعرفية التي يمكن أن تحويها هذه الرقعة الجغرافية الصغيرة والدور الثقافي والتاريخي الذي يمكن ان تلعبه. كما ساهم في إعطاء دفع كبير للأبحاث الأركيولوجية وتأسيس متحف بها سنة 1875، وأعطى من الأسماء القديس لويس (الآن متحف قرطاج). ويعتبر هذا الإنجاز مهما

ليس على مستوى بلدان شمال إفريقيا فحسب بل في المستوى العالمي. وهذا الإدراك بأهمية المنطقة هو نابع عن دراية ومعرفة وفي نفس الوقت وجود منافسة دولية ورغبة جامحة من قبل بلدان أخرى والذي جعل المنافسة الدولية تبقى على أشدها لاستغلاله واكتشافه معرفيا وتاريخيا وثقافيا خاصة بين كل من إنكلترا وألمانيا وإيطاليا.

4-2- مساهمة الأب ديلاتر (Alfred Louis Delattre) (1850-1930)

وصل الأب ديلاتر إلى قرطاج سنة 1875، وكان يدرك أيضا القيمة المعرفية والثقافية لهذا الموقع. وقد أوكلت له مهمة اتمام الأبحاث

¹⁷ GUTRON (Clémentine), *L'archéologie en Tunisie (XIX-XX^{ème} siècle jeux généalogiques sur l'antiquité*, IRMC, Tunis, 2010, p 114 .

¹⁸ DIEHL Charles, *Les découvertes de l'archéologie Française en Algérie et en Tunisie*, Armand Collin, Paris, 1892, p31.

الآركيولوجية التي انطلقت مع الأب لافيغري محملا إياه مسؤولية إكمال الأبحاث التي بدأها هذا الأخير، والذي سيأخذ المبادرة هو أيضا للإسراع بتكوين بعثة علمية قارة بقرطاج.

ومنذ تعيينه على رأس المؤسسة الدينية، انهمك الأب ديلاتر رفقة المبشرين المصاحبين له على القيام بحفريات. لقد عمل في هذا الباب لإيمانه الراسخ بأن قرطاج مثلت محطة مهمة بالنسبة للمسيحية عموما والمسيحية بإفريقيا بشكل خاص بالإضافة إلى انكبابه على دراسة الفترة المسيحية فكان يحفر الأرض بحثا عن اثر ترك من طرف المسيحيين الأوائل¹⁹، وقد تمكن من اكتشاف داموس الكريطة بقرطاج سنة 1878 و1890 إلى جانب عثوره على عديد النقائش والكتابات اللاتينية التي تم نشرها في عديد المجلات المختصة أهمها المجلة التونسية لتي نشرت له تباعا عديد البحوث التي أنجزها والنتائج التي توصل إليها منذ سنة 1894. فكانت النتائج التي نشرتها هذه المجلة تهم النقائش مع تحديد مكان إستخراجها والفترة التي تعود إليها. إن ما وقع اكتشافه من مواقع أثرية ونقائش من قبل الأب ديلاتر قادر بمفرده على تأسيس متحف وهذا ما تم بالفعل في مرحلة لاحقة.

4-3-متحف القديس لويس (Saint Louis) بقرطاج الإنجاز الثقافي الأبرز لرجال الدين الفرنسيين خلال القرن

التاسع عشر

يمكن القول أنّ الأب ديلاتر هو الذي كان وراء تأسيس متحف القديس لويس بقرطاج، فهو الذي كانت لديه الإرادة في جمع القطع الأثرية وتحويلها إلى متحف.²⁰

لقد بدأ الأب ديلاتر منذ 1876 بتجميع القطع الأولى للمتحف وفي ظرف خمس سنوات (1876-1881)، وعبر الحفريات التي أنجزها تمكن من تجميع ما يزيد عن ستة آلاف (6000) قطعة أثرية تم عرضها في أروقة المتحف كما عرفت هذه المجموعة نسقا تصاعديا عبر السنوات.²¹ لقد توفرت في هذا المتحف مادة للعرض وهي مادة غزيرة بالمقارنة مع ظروف ومعطيات تلك المرحلة. فبعد أن تجمعت داخل مقر الآباء أو رجال الدين على مدى سنوات طويلة وتدعم بشكل واضح مع فترة لافيغري، إلا أنه أخذ شكله النهائي مع الأب ديلاتر ووصله إلى قرطاج. لقد شملت المجموعة الموجودة فوانيس ومزهريات ونقائش وقع تنظيمها وتصنيفها بحسب المواضيع والفترات وبحسب ترتيب زمني²²، كما احتوت على تماثيل وفوانيس من الذهب والفضة وبعض النصوص البونية. ولئن بدا المتحف ذو توجه لعرض القطع المسيحية التي خصصت لها قاعة، كما خصصت قاعة للتعريف بالحروب الصليبية والتي ازدادت برسوم غطت جدران وسقف المتحف تبرز مراحل وجود الملك القديس لويس بقرطاج، إضافة إلى جزء آخر من المتحف تعود قطعه الأثرية إلى الفترة البونية.

لقد مثلت الأبحاث التي قام بها كل من لافيغري وديلاتر فيما يخص الفترة المسيحية بتونس هاجسا معرفيا ومجالا بحثيا استهوى الشخصين وانكبا على دراسة كل ما هو متعلق بهذه المرحلة التاريخية للبلاد التونسية، وإن اعتبر هذا التوجه من نقاط ضعف هذه الأشغال العلمية، إلا أنها في نفس الوقت يمكن فهمها وقبول نتائجها.

فالفهم مرده أن الرجلين ينتميان لمؤسسة دينية مسيحية غربية فرنسية ومن الطبيعي ان يكون مجال اهتمامهما الأول هي الأبحاث المتعلقة بالحضور المسيحي بهذا البلد خاصة إذا كان تاريخ هذا البلد ليس كأى تاريخ فيما يهم الحضور المسيحي فنحن نتحدث عن ثراء لا متناهي في هذا المجال، فبعض الأسماء المدوية في تاريخ النصرانية لا يمكن التغافل عنها أو عدم النبش فيها وعدم العودة بذاكرتهم لهذه الأسماء الأسطورية والتي حفرت في الذاكرة وفي التاريخ المسيحي.

¹⁹ GUTRON (Clémentine), *L'archéologie en Tunisie (XIX-XX^{ème} siècle jeux généalogiques sur l'antiquité*, Op.cit, p 114 .

²⁰ BACHA (Myriam), *Le patrimoine Monumental en Tunisie pendant le Protectorat, 1881-1914, Etudier, Sauvegarder, Faire connaître*, Thèse, Université Paris IV, Sorbonne, 2004-2005, p200.

²¹ DIEHL (Charles), *Les découvertes...* Op.cit. p24.

²² GUTRON (Clémentine), *L'archéologie...* Op cit, p 174.

وكيف يكون الأمر إذا اقترنت هذه الأرض بملامح أخرى يعتبرها الأوروبي والفرنسي تحديدا جزءا من ارثه وتراثه وماضيه المجيد، هذا الماضي الذي فيه من الأخبار التي وصلتهم عن شهداء نصارى.

فبالنسبة للكاردينال لافيغري والأب ديلا تر ما يعنيهما بالدرجة الأولى أن من رحم هذه الأرض وخلال الفترة المسيحية (القرن الثاني للميلاد إل القرن السابع)، كانت هناك أعلام وأسماء مدوية لا تزال إلى يومنا هذا تمثل علامات ومرجعيات فيما يهم الكنيسة الكاثوليكية مثل القديس أفستين، واكتملت الصورة بالنسبة للفرنسيين عموما ورجال الدين بشكل أخص بان مثلت قرطاج الأرض التي شهدت وفاة الملك القديس لويس الذي قاد الحملة الصليبية الثامنة على تونس (1270).

كل هذه الهواجس المعرفية كانت مشروعة بالنسبة لرجال الدين والتي يمكن تفهمها ولكن كيف لنا أن نقبل بالنتائج؟

1- تبدو أولى النتائج الحاصلة والتي تعتبر بحد ذاتها إنجازا ثقافيا ملاً فراغا معرفيا كان موجودا في مستوى الدراسات والأبحاث الخاصة بالفترة المسيحية أين كانت البلاد التونسية خاضعة في ثقافتها ولسانها للغة اللاتينية وفي ديانة شعبها للنصرانية لما يناهز الستة قرون وهي مرحلة من تاريخنا لم تحض بالحد الكافي من الدراسة والبحث والتمحيص وتطرح الكثير من الأسئلة التي لم تجد الأجوبة الكافية والتحليل المستفيض.

صحيح أنّ من بين الانتقادات الموجهة للمؤسسة الدينية أن أشغالها لم تتسم بالمهنية، وبالتالي لم يقع اعتبار نتائج الأبحاث كنتائج علمية، وبأنّه تم توظيف التاريخ لخدمة أغراض تبشيرية لكن لم يمنع ذلك من خوض مغامرة البحث وما تتطلبه هذه العملية من عناء وجهد.

2- نعتبر أن النتيجة الأهم والأبرز لهذه الأبحاث ما قاما به رجلي الدين لافيغري وديلا تر من الإقدام على تأسيس متحف، فهذا المشروع هو في حد ذاته صرح ثقافي مهم جدا خاصة أنه جاء في فترة لم تعرف مثل هذه المشاريع الثقافية من قبل، فالمتحف الذي أنجز قام بحفظ الذاكرة الجماعية من التلف والضياع حتى وإن كانت هذه الذاكرة عرجاء ومشوهة فهي بالتأكيد أفضل من أن نكون بلا ذاكرة. وعلى حد تقديرنا، فإننا نعتبر أنّ أهم إنجاز ثقافي قامت به المؤسسة الدينية الفرنسية بالبلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر هو تشييد هذا المتحف لأنه من خلال هذا الإنجاز رسخنا مفهومنا جديدا لم يكن موجودا في الثقافة العربية الإسلامية والمتمثل في تخصيص مكان يقع فيه تجميع القطع الأثرية لحفظ الذاكرة الوطنية والإنسانية من التلاشي والضياع.

الخاتمة

يمكن اعتبار القرن التاسع عشر قرن التحولات الكبرى على المستوى السياسي والاقتصادي وقرن المد الاستعماري على الصعيد العالمي ولكنه مثل في نفس الوقت قرن التحولات في مستوى البلدان العربية الإسلامية كالا بحسب خصوصيته ووضعها الداخلي، فقد انعكست التحولات الدولية على الأوضاع الإقليمية والمحلية، ولم يكن المجال الثقافي بمعزل عن هذه التغيرات بل على العكس تماما فإن المعطى الثقافي هو المحرار الذي يمكن أن نرصد به وبشكل جيد مجمل التفاعلات الحاصلة بين ما هو اقتصادي وما هو اجتماعي وسياسي وذهني ونفسي، فتداخل كبير بين ما هو علمي وما هو ثقافي وما هو عسكري، وهذا التشابك قد يبدو طبيعيا في فترة المد الاستعماري، حيث لا مناص من تعامل هذه المؤسسات مع بعضها البعض.

كما سيعكس هذا القرن حدة التثاقف عبر حركة الأفكار وسرعة تنقلها من مكان إلى آخر وحركة الناس الذين يتنقلون لأسباب مختلفة منها ما كان في شكل رحلات ومنها ما كان بدافع الفضول ومنها ما كان لأسباب علمية وأخرى استعمارية دينية حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وآراءهم المختلفة محاولين غرسها في بيئة جديدة بشكل إرادي أو لا إرادي، وطريقة واعية أو لا واعية فإن نتائجها في البنية الثقافية للبلد المستقبل لهؤلاء ستكون حاضرة بالضرورة بنسب مختلفة بالقليل أو الكثير ولكن هذه التغيرات لن ندركها إلا على مدى بعيد. إذا المسألة ليست مسألة تشبه المغلوب بالغالب بل استعداد الإنسان للتأثر بما هو وجيه ورفيع وسام في الدين والحضارة والثقافة، ولو كان هو الغالب عسكريا وماديا.²³

²³ جعيط (هشام)، أزمة الثقافة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011، ص 22.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- *Archives Militaires de Vincennes*, 2 H 2, rapport sur une expédition dans le sud de la régence de Tunis, Tunis le 1er mai 1857.
- *Archives Militaires de Vincennes*, 2H1, rapport n° 6, 1879.
- *Archives Militaires de Vincennes*, 2H2, dossier n° 2, de 1847 au 1855, document n 63, n° 199 et 217.
- *Archives Militaires de Vincennes*, 2H2, rapport n° 4, voyage à Thela par PELLISSIER, p2.
- BASSET (MM. A) et autres, *Initiation à la Tunisie*, Ouvrage collectif, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1950.
- DIEHL (Charles), *Les découvertes de l'archéologie Française en Algérie et en Tunisie*, Armand Collin, Paris, 1892.
- GUERIN (V.), *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, Henri Plon, Paris, 1862.
- HUGON (H.), « Trois contes tunisiens d'un officier français (J. L. LUGAN, 1834) », *Revue Tunisienne*, Tunis , 1917, p 81.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

- إدوارد (سعيد)، الاستشراق، المعرفة، السلطة الانشاء، نقله للعربية كمال أبو ديب، الطبعة السابعة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2008.
- بيسونال (جون اندريه)، الرحلة إلى تونس (1724)، ترجمة تحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003.
- التيمومي (الهادي)، تونس والتحديث أول دستور في العالم الاسلامي، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2010.
- جعيط (هشام)، أزمة الثقافة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011.

باللغة الأجنبية:

- ARNAND (Annie), «L'exploration archéologique de la Tunisie», Presse Universitaires du Mirail, Toulouse, p 543.
- BACHA (Myriam), *Le patrimoine Monumental en Tunisie pendant le Protectorat, 1881-1914, Étudier, Sauvegarder, Faire connaître*, Thèse, Université Paris IV, Sorbonne, 2004-2005.
- GUTRON (Clémentine), *L'archéologie en Tunisie (XIX-XX^{ème} siècle jeux généalogiques sur l'antiquité*, IRMC, Tunis, 2010.
- OULEBSIR (Nabila), *Les usages du patrimoine, monuments, musées et politique coloniales en Algérie (1830-1930)*, Edition de la des sciences de l'homme, Paris, 2004.